الكاتب : المصطفى الحطابي - المغرب

الابتسامة المفقودة

في أحد الأيام، كان كاتب يتجول في الشارع، فوجد دمية متسخة صغيرة بلا فم، دون أن يلاحظ الفراشة التي ترافقها، فحملها ثم اتجه إلى البيت مباشرة صوب غرفته، نظفها مسح الغبار المتراكم عليها، رسم ابتسامة بقلمه و وضعها على مكتبه، بعد أيام أصبح كلما يكتب شيئا يقرأه عليها، أصبحت جزءا منه، لكن في كل مرة يرسم ابتسامة عليها تختفي مع كل إطلالة، و كل مرة يرسم لها شخصية في خياله، كالمتذمرة أو المعقدة.

أغلب شخصياته كانت سلبية، لأن تلك الابتسامة المخفية تؤثر على كيانها، و كان يصفها بالحنونة تارة و السلبية تارة أخرى فيتركها، لكن سرعان ما يرى بريق عينيها الذي يفقده غضبه، فتصبح شبه ابتسامة.

مرت الأيام و بدأت تلك الابتسامة بالظهور، بل كلما رسمها إلا و بقي منها شيء بسيط يزداد مع الوقت، فنتيجة تعب الكاتب بدأت بالظهور، تعلق بها كثيرا فأصبحت جزءا منه، لقبها بالبسمة لتكون فال خير، كان يلاحظ تعلقها الكبير به الذي كان يخيفه كثيرا، يحس كأنها تقول له :

" أنت من أعطيتني حياتي و علمتني الابتسامة

فأصبحت جزءا مني لن أفارقك مدى الحياة ".

في كل مرة تأتيه الفرص السّانحة ليرحل من تلك المدينة، يبدأ بجمع حقائبه فيجدها تبكي و تصبح البسمة حزنا شديدا، كأنها تقول له " أنت ملكي أنا و ليس لأحد غيري، فإن رحلت لن يوجد من يواسيني " حتى إن وضعها في الحقيبة تبكي، فوعدها بأنه سيبقى معها دائما، و لن يرحل عن ذاك البيت الصغير، و لن يتخلى عليها، أصبحت ملهمته حتى أنه قرر البدء في كتابة قصتهما التي أسماها " دميتي سعيدة ".

عادت الابتسامة من جديد فأصبحت تنام على وسادته بجانب رأسه، تعلقا ببعضهما، قال لها في أحد الأوقات " أنت و قطتي متشابهتين، تخدشانني تعضانني تغضبانني، لكني لا أستطيع رفض نومكما فوق صدري و مساعدتكما على الارتياح "، أحس إحساسا غريبا، ذاك الاهتمام الكبير جعله نصفها الأخر، كأن روحه سكنت فيها، بدءا في مرحلة التغيير فأصبحت ايجابية لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن ...

حبّ شفيف.. !

انشغل الكاتب ببعض الأعمال، ليهملها و يضعها في ركن فوق مكتبه بعدما كانت تنام بجانبه، لكن لماذا ظهرت الفراشة أم جنية صغيرة، للأسف سقطت الابتسامة، و تجمع عليها أثار الحزن و السعيدة تعست، أما هي لا حول لها و لا قوة، تريد الصراخ لكنها دمية، تبكي و لا ينزل لها دمع، اختفت الابتسامة و تاهت بين وسوسات الجنية، و إذا بريح قوية تدخل غرفته فتطيرها، ففرحت من كنا نظن أنها فراشة ترمز للخير،

للأسف أظهرت وجهها الحقيقي لتصبح جنية، دخل الكاتب فلم يجدها، صعق صديقنا و ندم على إهماله لها، فرمى كتبه و غضب كثيرا ليخرج و يبحث عنها، يسأل الأطفال، يبحث في القمامة، كمن تاهت منه حبيبته، يركض و عقله معها، أخيرا ... وجدها متسخة و ممسوحة الابتسامة، كانت فرحة ملطخة بدماء الحزن، رجعت إلى نفس حالتها في البداية، رسم ثم اختفاء ... لكنه يكفيه أنه وجد من يفهمه، فأعاد كلماته عليها " أنت و قطتي متشابهتين، تخدشانني تعضانني تغضبانني، لكني لا أستطيع رفض نومكما فوق صدري و مساعدتكما على الارتياح " كما أضاف " لا أريد من يلهوا بك يوما و يرميك في اليوم الموالي، أنت أصبحت جزءا مني، أخاف عليك كنفسي، أحبك أكثر مني، فلا تغيبي عني و إن قررت الابتعاد فوصيتي تحت رأسك احمليها و ارحلي " فأجابته في صمتها كالعادة " أنت من مسح الغبار عني مرات كثيرة، و أرجع الابتسامة لي مرات كثيرة، فأنت من يقويني في ضعفي، لن أرحل فأنا و قطتك ملكك "، تلك القشعريرة التي سارت بينها، و لتنتهي هذه القصة على بقاء الدمية فوق وسادة الكاتب.

****

هوية متمرد

أقف على حافة الكون، و أحمل ورقة استقالتي من الحياة الملطخة بدمائي، أما في الجهة الأخرى ... هناك سراب من ترمي همها على كتفي، لأتخذ قراري ... إما أن أتراجع عن فكرتي، أو اقفز من الكون، لأتناسى ما يحيط بي من ألام و خداع.

أقف على حافة الكون، و تلك الحقيبة التي تتناثر منها ذكرياتي و أحلامي، دمي و بكائي، و هي تتوسل بالعودة عن قراري، لأسمع أصوات تأمرني بالقفز و آخرون يضحكون علي، أما أنا ... لا أعرف هويتي أم هي ... هوية متمرد، لا يعي ذاته.

أقف على حافة الكون، و تلك العروسة البيضاء تمسك يدي كالملاك، لأسمع أصوات تنادي بالقفز و أخرى تشمت، أما هي فتبكي و تمسك يدي اليمنى، و اليسرى ملطخة بدمائي التي كتبت بها ورقة استقالتي - ربما سأقبلها - لأقفز مغمض العينين بعدما فتحتا على حافة كون، القريب يائس و البعيد منتظر، لا يجد فيه عدل ولا رحمة و لا إحسان.

أقف على حافة الكون، لا أفقه من أنا، فهل ينفع الرجوع عن القرار، و لماذا الكلمة هي الرجل، لأحقق أماني الكثير في قفزي – أعني انتحاري – نصف الكون في اليمين و النصف الثاني في اليسار، فما الفرق؟ لا أظن أنه موجود، النصف الأول سراب يعني أحلام، فأين الحقيقة؟ الحقيقة موجودة في النصف الأخر دم و استقالة، خداع وسط الحقيبة، أوراق كتب فيها

شعر، نثر ... فهل تنفع الأوراق إلا لمسح دم بكرة قتلها الحزن - أقصد الحرب – اتخذت قراري.

أقف على حافة الكون، أتكلم عن فكرة الرجوع، لاستئناف مسار جديد بأشواك وروده، تصحيح أو تدنيس الأخطاء، فالكون مجموعة أخطاء عدلت، أما نحن فلا حول لنا أو قوة، سوى الضحك على أخطاء الآخرين، و الآخرين يضحكون علينا، فهل أنا مللت في هذا التبعثر أم هو مجرد جنون ينتابني؟ - حالة فقدان الإحساس بالذات و الأمل – لا يهم بل المهم أني فقدت شيء، اتخذت قراري.

أقف على حافة الكون، مبعثر الحال، لكني أتظاهر بالصمود و أبتسم، لا أريد الجلوس، لأني مريض بفوبيا المرتفعات، و إن جلست سأسقط، أريد الحديث مع ذاتي، لأعرف هويتي، و هل أنا حقا متمرد أم مختبئ جبان، أحاول إسكات أصوات بداخلي حتى استرجع بعد الذكريات، لكي أجد سبب أقنع به قراري بالعودة عنه، و رمي حقيبتي لأعانق السراب، حتى هذا الأخير لا احتاجه فهو من يحتاجني، في ألمه يريدني و في ألمي يأمرني بالصبر، و إلى متى يصبر الميت؟

أقف على حافة الكون، بلا استقرار ذهني أو عاطفي، ذكريات تموت، و أخرى تولد من جديد، أحلام تتحقق و أخرى نضحي بها، صراخ يزيد إسراري على القفز و أخر يزيد من أضراري للرجوع، لا اختيار لي، و للحديث بقية، لم أتخذ قراري.

أقف على حافة الكون، ما بين الجنون و العقلانية، لا أعرف ما أختار

لأختلي بأفكاري، مضاجعا ملحمة الموت أو الحياة، لكني قررت ...
سأستعيد ما حرمت منه، لأبقى غير أنا أو أختلف عني، أزيد أشياء و أنقص أشلاء، إما النسيان أو إعادة اليأس، لكني قررت ...
أقف على حافة الكون، و هناك بحر بعيد المدى، لا يصله أحد كل من حاول مات، و كل من مات سيجني ما له و عليه، فلتغرق سفنهم و ليرحلوا، كما قلت لقد اتخذت قراري ... و قد وجدت هويتي ... لكم واسع النظر في خططت أناملي ...
أقف على حافة الكون، كما و سبق علمك سادتي سيداتي، أني ... قررت، سأرمي ... ليس بنفسي كما سيظن الأغلبية، لكني سأرمي بتلك الحقيبة الممتلئة بالأوراق و الهم و الماضي، أما ورقة استقالتي سأضمد بها جرحي الذي نزف طويلا و هكذا قراري لم يكتمل بعد ...
أقف على حافة الكون، ممسكا بيدها أو ممسكة بيدي لا يهم، المهم هو أنها معي أو أني معها، أسلوب متمرد في الكتابة العبثية، لا يهم ... سنعود معا، نبد صفحة لا خصام فيها، لا دم فيها، لا عتاب – إن عاتبتني صاحبة الابتسامة الكونية و ألأعين الخرافية سأضمها و أضحك – عدت إلى موطني معها، فلقد اتخذت قراري.
لم أعد واقفا على حافة الكون، بل اتخذت قرار العودة لإعادة بناءي ذاتي معها.

****